# المرحلة النصانية

لا يمكننا الحديث عن المناهج النسقية في النقد الحديث دون المرور ببعض المدارس الأدبية و النقدية التي كانت بمثابة الأرضية التي وقف عليها رواد تلك المناهج . و نعني هنا حركة الفن للفن ،و تيار النقد الجديد ،و المدرسة الشكلانية الروسية بدراساتها اللغوية و اللسانية و الأدبية وكل هذه المدارس منطلقا صلبا لمختلف المناهج النسقية .

و من الملاحظ أن مختلف هذه الاتجاهات جاءت كرد فعل على المناهج

الاجتماعية و التاريخية و النفسية ، و هي مناهج سياقية ربطت الأدب دائما بخارجه مكرسة منطق المنفعة الأدبية على حساب مبدأ الجمال. و يعد كانط من أكبر الفلاسفة المنظرين لجمالية الفن ،فإذا كان أفلاطون قد رفض الفن لأنه غير " مفيد " فإن كانط يرفض الفن إذا ارتبط بالوظيفة الاجتماعية و الأخلاقية " فالعمل الأدبي و الفني له بنية ذاتية و ما يجعل منه عملا أدبيا و فنيا هو هذه البنية ، و يضيف كانط بأن كل ه شيء له غاية سوى الجمال فأمامه نحس بمتعة تكفينا السؤال عن الغاية "[1] و في ظل تراجع سؤال الغاية الأخلاقية و الوظيفة الاجتماعية أو النفسية للأدب انتعش سؤال القيمة الجمالية المنادي باستقلال الأدب عن مجالات الحياة الأخرى و اكتفاء الأديب

[1]- شكري عزيز الماضي : محاضرات في نظرية الأدب ، ص63.

بالبحث عما يجعل من كلامه بنية جمالية و عما يجعل خطابه متمايزا عن الخطابات السياسية و الأخلاقية و الدينية و في هذا السياق يعلن الشاعر "تيوفيل غوته" بأن الفن مستقل تماما بل يذهب إلى أبعد من هذا فيقول: "لا وجود لشيء جميل حقا إلا إذا كان لا فائدة له "[2]كما يذهب الشاعر الفرنسي شارل بودلير إلى أن "الشعر العظيم الذي يستحق اسم الشعر هو ذلك الذي يكتب لمجرد المتعة في كتابته"[3]و في سياق هذا الفصل بين الأدبي من جهة و بين السياسي و الاجتماعي و الأخلاقي من جهة أخرى نشأت التيارات النقدية التي تهتم بجوهر النص و جوهر الفن بشكل عام متزامنة حينا ، متعاقبة حينا آخر ، متداخلة في بعض مقولاتها ،متباعدة في بعضها الآخر ، و هو ما سنراه لاحقا.

1 - مدرسة النقد الجديد :و هي مدرسة ظهرت بأمريكا في بدايات القرن الماضي ،يطلق على هذه المدرسة باللغة الإنجليزية مصطلح New criticism أما في اللغة الفرنسية فقد أبقي على هذا المصطلح مع إضافة أداة التعريف Le « new criticism » ،وذلك تمييزا لها عن النقد الجديد La nouvelle critique الذي تزعمه رولان بارث بفرنسا . و الحقيقة أن تاريخ ظهور هذا المصطلح يعود إلى سنة 1911 حيث شكل عنوانا لكتاب ألفه "جون سبنجارن " ، ثم توسعت العناية بهذا النقد الجديد مع "جون كرو رانسوم" الذي ألف كتابا بنفس العنوان ، و قد حوى هذا الكتاب الرؤية الجديدة لطبيعة النقد الأدبي وألح على ضرورة تخليص هذا النقد من تأثيرات المناهج الانطباعية و التاريخية . و سرعان ما تبنى طلبة رانسوم رؤيته ، و

---

[2] - نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] نفسه ، ص64.

نذكر من هؤلاء بروكس ، ألان تيت ، روبرت بن ورن ،وليم امبسون ،ستيفن سبيندر ،و إدموند ولسون...إلخ. و يشترك هؤلاء في رفضهم " تدخل العلوم الإنسانية من تاريخية و اجتماعية و نفسية و فلسفية في دراسة الأدب " [4]فتجاوزوا السؤال التقليدي ماذا يقول الأدب إلى سؤال جديد : كيف يقول النص؟ و تتمثل أهم أفكار مدرسة النقد الجديد في النقاط الآتية :

1 - اللغة الأدبية لغة مختلفة عن اللغة الحياتية و العلمية بل متفوقة عليها، فاللغة العلمية مثلا لغة ميتة لأنها تقدم المعرفة بشكل جامد بينما اللغة الأدبية لغة حية لأنها تقول الأشياء و الحياة عبر التجديد المجازي و الكثافة البلاغية و من هنا يكتسيها الغموض الذي هو في الحقيقة سرها العميق.

2 - لغة العلم غير قابلة للتحليل و التأويل بينما لغة الأدب إيحائية تحتاج إلى تأويل مستمر.

3 - يؤمن النقاد الجدد بتعدد مستويات المعنى ، إذ لا يوجد في النص معنى واحد محدد يهدف إليه

الكاتب ، بل هناك مستويات من المعاني تتعدد و تختلف بتعدد القراء و اختلاف مشاربهم الثقافية.

4 - لا تهدف القراءة النقدية إلى استخراج المعنى من النص و إنما تسعى إلى الكشف عما في القصيدة من آليات تحقق بنية فنية ذات مهيمنات أسلوبية يلاحظ تغلب أثرها على باقي العناصر بما في ذلك المحتوى.

---

[4]إبراهيم محمود خليل : النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، دار المسيرة ، ص 77.

5 - يهتم النقد الجديد بالسياق الداخلي للنص و ليس بأي سياق آخر و في ضوء ذلك يجري " تفكيك الرموز و الكشف عنها و عن دلالاتها و دراسة العلاقة الكامنة بينها و بين محتوى القصيدة مما يسبب للقارئ لذة في اكتشاف قدرته على إنتاج الدلالة الأدبية للنص"[5]

6 - آمن النقاد الجدد مبكرا "بموت" ذات الشاعر ، فكانوا يشيرون إلى شخصية المتكلم داخل القصيدة عوضا عن الشاعر .

7 - لعل أهم فكرة طرحتها مدرسة النقد الجديد هي تلك المتعلقة بقصد المبدع و نفسية المتلقي ، و هي فكرة اصطلح عليها كل من ويليام ويمزات wiliam» « wimsatt و مونرو بيردزلي « M.Beardsly » بالمغالطة القصدية و المغالطة التأثيرية , و هما مغالطتان قديمتان ينبغي تخلص النقد الموضوعي منهما .[6]

و قد لاقت مدرسة النقد الجديد رواجا في النصف الأول من القرن الماضي في العالم الغربي ، ثم تراجع مدها في النصف الثاني منه ، و قد تحمس لها بعض النقاد العرب أمثال رشاد رشدي صاحب كتاب " مقالات في النقد الأدبي " و " ما هو الأدب" و تبناها لاحقا محمد عناني و روز غريب في كتابها "النقد الجمالي"و لطفي عبد البديع .

2 - الشكلانية الروسية : تضم المدرسة الشكلانية الروسية ائتلافين علميين ظهرا في روسيا ما بين 1915-1920 ، هذان الائتلافان هما حلقة موسكو و جماعة الأبوجاز . و قد تأسست حلقة

---

[5] -نفسه ، ص79

[6] نفسه ، ص80.

موسكو سنة 1915 بزعامة رومان جاكوبسون ، و كانت عبارة عن نادي لساني ضم بعض الطلبة و الباحثين منهم بوريس توماشفسكي « B.Tomashevsky » و أوسيب بيرك « O.Birk »و ميكائيل باختين « M.Bakhtine »و فلاديمير بروب « V.Propp »

بينما تأسست جماعة الأوبوجاز( جمعية دراسة اللغة الشعرية) سنة 1916، و كان من بين أعضائها فيكتور شكلوفسكي « V.chklovsky » و بوريس إيخنباوم « B.Eichenbaum »و عنت هذه الجمعية بالبحث في طبيعة اللغة الشعرية بحثا يتكئ على فرضية تمايز هذه الأخيرة و تفوقها عن لغة النثر. و يمكن أن نلخص مقولات هذه المدرسة في النقاط الآتية :

1 - أدبية الأدب : يقول جاكوبسون : " ليس موضوع علم الأدب هو الأدب و لكن الأدبية ، أي ما يجعل من أثر ما عملا أدبيا" [7] لم تعد الدراسة الأدبية معنية بقراءة محتوى النص أو معناه و لكنها معنية بتتبع الأثر الجمالي باعتباره الوحه الفاصل بين ما هو أدبي و ما هو غير أدبي.

2 - قضية اللغة المعيارية و اللغة الشعرية: لقد خص موكاروفسكي هذه القضية بعناية فائقة ،فاللغة المعيارية هي لغة الخطابات اليومية و الخطابات العلمية و هدفها التوصيل و التواصل بينما هدف اللغة الشعرية هو إحداث أثر جمالي في المتلقي ، و إذا كانت الكلمات في النثر تعبر عن دلالة فكرية معينة فما يميز الشعر هو على العكس " نوم الدلالة " .

---

[7] – Roman Jakobson : Essais de linguistique générale ,ed seuil , Paris , France, p210.

3 - دعا موكاروفسكي من جهته إلى قضية كسر ألفة اللغة ، فالوظيفة الشعرية تتحقق عبر طريقة خاصة من "توحيش اللغة" و توحيش اللغة يعني العودة بها إلى ألفتها العميقة حيث تختلف معايشتها من قبل الشعراء المتكلمين بها و في ذلك الاختلاف تلتحم ذات الشعر باللغة التحاما يخرجها على غير نسقيتها المعهودة.

4 - برز مع هذه المدرسة مفهوم " المهيمنة " الذي طرحه رومان جاكوبسون لتمييز النص الشعري ، و يعرف جاكوبسون المهيمنة بأنها " العنصر البؤري للأثر الفني : إنها تحكم و تحدد و تغير العناصر الأخرى ، و هي التي تضمن تلاحم البنية" [8] ففي كل عمل شعري مثلا نجد عنصرا طاغيا و مهيمنا قد يكون الوزن أو الموسيقى الداخلية،أو الصورة الشعرية ، و انطلاقا من هيمنة ذلك العنصر نحدد نوع العمل :هل هو قصيدة موزونة أم قصيدة نثرية .و القيمة المهيمنة ليست ثابتة إذ لا توجد للشعر مهيمنة واحدة عبر تاريخه بل إن قيما عديدة تتناوب في الهيمنة على النص ، و لذلك لا يحتفظ الجنس الأدبي بثبات حدوده ، و العنصر المهيمن قد يميز عمل فنان كما قد يميز مدرسة بكاملها أو حتى عصرا كاملا. [9]

و على العموم فالشكلانيون – و قد بنوا أعمالهم النقدية – على الإرث اللساني السوسيري ، يلتقون مع دو سوسير في مسألة " المحايثة" ، فقد درس دو سوسير اللغة في بعدها الآني مهملا تطوراتها التاريخية ، و ذلك شأن النص الأدبي أيضا، ينبغي أن يدرس في انغلاقه على نفسه باعتباره نسقا جماليا.

---

[8] – Roman Jakobson : Questions de poétique , ed du seuil , Paris ,France p145.

[9] Ibid, p p 145-146.